كتاب الشهر

أنين الصواري .. والبحث عن الهوية الشعرية

الشاعر علي عبدالله خليفة

لعل بحث الشاعر العربي الحديث عن صوت مميز واسلوب خاص يتفرد به ، هو اكثر المشكلات مدعاة الى المعاناة والجهد . وهذا السعي نحو التفرد في الموقف ، والصورة واللغة الشعرية هو المبرر الاول لهذا العدد العديد من التجارب الشعرية الجديدة التي تفجرت على مسرح الشعر في السنين العشرين الماضية ، والتي تراوحت بين الاعتدال والمعقولية من جهة ، والاغراق في الغرابة والانغلاق من جهة اخرى .

وبين هذه المحاولات تقف مجموعة « انين الصواري » محاولة جادة ومخلصة من جانب على عبدالله خليفة لاكتشاف صوته الشعري ونبرته المتميزة

وقد يحدث له عبر رحلته الاستكشافية هذه ان يستعير حنجرة غيره من الشعراء لبعض الوقت . او يكرر ، مع تعديل غير جوهري ، بعض ما رددوه من قبل . غير أنه يبدو ان مثل هذه الهفوات الشعرية غير الارادية هي جزء لا يتجزأ من مرحلة التكوين الشعري الاولى ، التي لا تخلو من بعض السمات التجريبية .

ترى ما هو الجديد الذي يريد علي عبدالله خليفة اضافته الى ما سبق وقاله الشعراء المحدثون ؟ انه باختصار يريد أن يطرح في « انين الصواري » قضية هؤلاء الذين :

(يفلقون الصدف الموحل في عز الظهيرة
حسبما شاءت اميرة
في أقاصي الارض..في اغنى البلاد
في قصور من ضلال
تتشهى في دلال
درة حبلى ... نضيرة)

(صدى الاشواق)

ويريد ايضاً ان يلقي بعض الضوء على العلاقة المتوترة الخلافة بين الانسان والبحر في حوارهما الابدي من اجل انتزاع اللقمة الضرورية واثبات الارادة الانسانية .

(ايه يا بحر ، حكايانا كثيرة
ملّتها الليل ، ومجّتها الظهيرة
كدّني الغوص ، وما زلت أسيره
ها هُم قد خلفوني ...
كالبقايا .. من نفايات حقيرة)

(أنين الصواري)

والمتحدث هنا ليس شاعراً ذاتياً رومانسياً يكرر صور البحر التقليدية التي مضغها غيره من الشعراء ، واستهلكوها بوصفها رمزاً يدل على الضياع الغامض او الاحساس بالحيرة وانعدام الاتجاه . بل هو غوّاص حقيقي ، بالمعنى الحرفي للكلمة ؛ يتصيد اللؤلؤ على شواطىء البحرين ، وقد تكالبت عليه الشيخوخة ، والتعب والغبن والخسارة والكدح اليومي ، لتجعل منه انساناً او بقايا انسان . وعندما يحس بنهايته المحتومة ويرى الاجيال الجديدة اليافعة من الغواصين تخلّفه وراءها وتنطلق لتكرر دوره الحياة المهلكة هذه ، لا يجد عزاءه الا في أن يسترجع بينه وبين نفسه صور طفولته الاولى ، واشواقه الجارفة آنذاك لان يصبح صياد لؤلؤ متمرساً وكامل الجدارة :

(كم بكى قلبي من الخوف غريرا

حين ردت البحر تبّاباً صغيرا
شيعني الام بالدمع واوصتني كثيرا
وأبي يرجو من الله بأن اغدو كبيرا
أحمل العبء وارتاد الغمار
باحثاً عن لؤلؤ يغري طواويش البحار)
(أنين الصواري)

ولا شك ان هذا التبسيط النثري لجوهر القضية التي يطرحها على عبدالله خليفة في ديوانه ، يغمط الشاعر اكثر حقه . فهو من خلايا الزوايا المتعددة التي يرى منها موضوعه، انما يستعرض للمرة الاولى في الشعر العربي الحديث على ما اعلم، التراث الشعبي الفولكلوري الذي نسج حول عالم الغواصين المليء بالمرارة والغرابة .

وعلي عبدالله خليفة ، على صعيد الموقف الشعري ، يمكنه ان يدعي لنفسه شرف اعادة الاعتبار الى بعض البديهيات البسيطة التي اشتملت عليها كتب النقد ، غير ان الشعراء والنقاد على حد سواء تجاهلوها ؛ كأن يقال مثلا ان الشاعر هو ابن بيئته ، ونتاج للظروف الموضوعية التي ترفد تجربته الذاتية .

فالمتصفح للديوان لا بد ان يجد في كل صفحة منه ما يوحي بارتباط الشاعر الوثيق بالحياة حوله سواء في مضامينه او في صوره الشعرية ، او في ايراده للكثير من المصطلحات البحرية المحلية التي لا يضير ابداً ان يضع لها الهوامش والملاحظات لايضاح المقصود منها ، ما دام قد وضع نصب عينيه مهمة كشف النقاب عن مجال بكر وخفي وغريب ، ومفعم بالالم ، الا وهو مقارعة الانسان لسطوة البحر ولسطوة المتاجرين بالجهد الانساني في آن معاً .

على ان بيئة البحر الاجتماعية هذه لا تستأثر باهتمام علي عبدالله خليفة الى حد ينسيه العالم حوله : انه بحاجة دائمة الى الخروج من الدوائر المغلقة والبحث عن انتماءات اخرى تتفق وجو المعاناة والكدح وشجب الاستغلال الذي يجده حوله ، وتكمل تجربته في هذا المضمار . ولا عجب اذن ان يجد الشاعر امتداده الطبيعي على الصعيد العربي في موأخاة فتاة فدائية مقاتلة :

(واختي لم تعد تبكي
على ابواب يافاها
وما عادت تشق الجيب من حزن
وتندب حظ موتاها ...)

بل اصبحت اليوم :

(مسافرة قضيتها
لكل مدائن الصبح
لترفع في ضمير العالم المنهار
صوت الرفض والعدل)
(الجرح الكبير)

مثلما يجد الشاعر امتداده الآخر، على الصعيد العالمي ، في انتفاضات اخرى مشهودة ضد قوى العسف والنهب :

(انا طفل ....
يموت بضفة الميكونج مقتولا
وفي الادغال ، كم ضاقت به الدنيا
وكم جالت به رجلاه مذهولا ..
فهذي أمُّهُ تهذي ، بلا عقل
ولا تدري لعمر عذابها طولا ..)

بيد أن احساسنا بالاكتشاف والدهشة والتعاطف لدى الاطلاع على بعض جوانب هذا العالم الذي يعرضه لنا ديوان « انين الصواري » يجب ان لا يحجب عن اعيننا ظاهرتين واضحتين سوف يتيسر للشاعر ، بالمزيد من التمرس والجهد ، تلافيهما في انتاج مقبل .

الاولى : هي ان المضمون الشعري الجيد لا يمكن ان يكون دائماً شفيعاً لاشكال شعرية اقل جودة . واذا كانت الصلة بين الشكل والمضمون في الشعر وفي الفن ، صلة عضوية لا يمكن تجزئتها او فصلها ، فان اللغة الشعرية بل التراكيب العادية عند علي عبدالله خليفة ، وقد تضعف او تتعثر احياناً الى درجة بالغة الوضوح حتى في الجيد من القصائد . وصفحات الديوان زاخرة بمثل هذه الهفوات الاسلوبية بحيث يصعب على الناقد اختيار الشواهد منها .

والظاهرة الثانية : التي قد يعانيها كل شاعر يصدر ديوانه الاول ، هو أنه يميل الى ادراج بعض القصائد التي فات اوانها ، واستنفذها غيره من الشعراء بحيث يبدو الشاعر كما لو كان يقول كلاماً معاداً وموضوعات مكرروه. وذلك ما قصدت اليه في مطلع هذه العجالة عندما اشرت الى ان

الشاعر قد ينزلق عن غير قصد منه الى استعادة حنجرة غيره من الشعراء او الى تكرار ما اصبح من باب تحصيل الحاصل في الشعر الحديث . وتكفي للدلالة على ذلك مراجعة قصائد كثيرة في الديوان منها : (حدثيني انتظار — اغنية الى قلب صغير — العزف على وتر صموت — عندما يأتي ...) .

الا ان التجربة الجديدة الواعدة التي تبدت ملامحها في جزء كبير من قصائد الديوان الاخرى ، (الجرح الكبير — على ابواب الرحلة — انين الصواري — صدى الاشواق — زغب الطيور الجارحة — من اول الشـط احكي ..... الخ) .

اقول ، ان هذه التجربة كفيلة بأن تضع قدمي علي عبدالله خليفة على قاعدة صلبة وواثقة ، وبأن تمكنه من تلافي تلك العوائق والهفوات في انتاج مقبل .

فايز صياغ